التنظير والمذهبية في الأدب الإسلامي

للدكتور / صالح ربيعى عزب
أستاذ مساعد الأدب والنقد
بكلية البنات الاسلاميه بسوهاج

فى ظنى ان المشكلات الكبيرة التى يثيرها مصطلح الأدب الاسلامى ستبدد عندما نقف على حقيقة أولية هى :

ان الأدب الاســلامى لا يتعارض مع الأدب العربى ولا يزاحمه فى مقاعده ، وان بينهما علاقة الرحم والقرابة ، فالأدب العربى مصطلح يطلق على الأعمال الأدبية المنشــأة باللغة العربية أيا كانت مضمونانتها واتجاهاتها وعصورها ، والأدب الاسلامى مصطلح يطلق على الأعمال الأدبية التى تعالج قضية ما برؤية اسلامية صافية سواء أكانت مكتوبة باللغة العربية أو بغيرها من اللغات .

وبين الأدب العربى والأدب الاسلامى امومة وقرابة ، فقــد ولد الأدب الاسلامى فى احضان الأدب العربى ، وذلك عندما غمس الأدباء الذين هداهم الله للاسلام تجربتهم الأدبية فى قضايا الاسلام ووظفوا شعرهم ونثرهم فى خدمة المجتمع الاســلامى وفى القضــية الاسلامية واعلانها ، ونما هذا الوليد فى الشــعر العربى ونثره ، وعالج قضايا هذه برؤية اسلامية ، وشكل تيارا اســـلاميا رافق رحلة الأدب العربى منذ عصر النبوة الى يومنا هذا .

فالأدب العربى هو محضن الأدب الاسلامى الأول وميدانه الاهم ولكنه ليس ميدانه الأوحد فعنــدما انتشر الاسلام خارج الاقطــار

العربية ، ودخلت فيه شعوب أخرى ، وتأثرت بها آدابها ، نبتت لهذا الأدب أجنحة جديدة ، اعطت بعدا انسانيا عالميا ، فقد ظهر فى الأدب الفارسى منذ القرن الثالث الهجرى تيار اسلامى استفاد من الأدب العربى شعره ونثره واستفاد من القرآن والسنة ، وحمل قضايا اسلامية كثيرة وأصبح تيارا موازيا للتيار الاسلامى فى الأدب العربى، وربما يتفوق فى بعض القضايا والفنون •

وما لبث الأدب التركى ان استفاد من الأدب الفارسى والعربى ، ونهل مما نهل منه الأدبان المذكور ان من المعانى القرآنية ، فامتد الأدب الاسلامى الى لغات أخرى وشعوب أخرى •

وعندما تشكلت اللغة الأردية وظهرت فيها الأعمال كانت الآثار الاسلامية جزءا من نسيج هذه الأعمال •• وما زالت الآداب الفارسية والتركية والاردية تحمل تيارا اسلاميا واضحا حتى يومنا هذا •

ولاشك ان الأدب العربى هو ميدان الأدب الاسلامى ، لان اللغة العربية هى لغة الاسلام ، يحتاج اليها المسلم فى صلاته وفى تفقهه بالدين ، وكم تمنى الدعاة ان تكون العربية هى اللغة الوحيدة للشعوب الاسلامية كافة •

ولكن •• وعلى اعقاب الحلم تواجهنا حقيقة كبيرة ، هى ان ثمانية أعشار المسلمين تقريبا — يستعملون فى حياتهم اليومية لغات عملية غير عربية ، ويكتبون آدابهم بها ، وقد أثر الاسلام فى هذه الآداب فحملت بعض قضاياه حتى لنكاد نجد القضية الواحدة فى أعمال أدبية مختلفة اللغات والمواطن ، ونجد ان معالجتها متقاربة أو متشابهة •• لانها تصدر عن تصور واحد هو التصور الاسلامى •

أذن •• فالأدب الاسلامى لا يلغى شيئا من الأدب العربى ،

ولا يمكن الأدب الجاهلى أو الأموى أو العباسى بما فيه من شعر أو نثر يوافقه أو يخالفه ، بل يرى فى الأدب العربى ميدانا يضم تيارات شتى، منها ما هو جزء من جسد الأدب العربى الاسلامى ذاته ، ومنها ما هو تيار معاند ، يصطدم بالرؤية الاسلامية ويمثل اضطراب التجربة الانسانية وتناقضها فى ظل اضطراب العقيدة أو فسادها ، وهذا النوع وحده هو الذى يزاحمه الأدب الاسلامى بل يسعى الى عدم تكراره فى ادبنا المعاصر أو المستقبل •

وعندما نتحدث عن الأدب الاسلامى لا نرفض تراثا عريقا ، ولا ندعو الى أدب بلا جذور وعلى النقيض من ذلك نكب على التراث ونهتم به اهتمامنا بالجذور التى تحمل النسغ الى غصوننا ، ونعده البداية المهمة التى لا يصح ان ننفصل عنها ، ونفتش فيه عن الاعمال الأدبية التى حملت تجارب الأديب الملتزم باسلامه عقيدة وفنا ، ونعدها رصيدنا الذى يدعم تجارب الأدباء المعاصرين والأدباء القادمين ، ولا ننفصل أيضا عن الأدب الجاهلى لأن فيه من الحقائق الانسانية ومعطيات الفطرة شيئا كثيرا ، وما نلوث منه بالروح الجاهلية وبوثنيتها ، لا يبيح لنا أن ننكر الجانب الآخر ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — أسوتنا الحسنة — فقد استنشد شعر امية بن الصلت الجاهلى ، والصحابة الكرام رضوان الله عليهم وقفوا مرات كثيرة على شواهد معجبة فى الشعر الجاهلى تتألق فيها الفطرة الانسانية وتقدم صياغة فنية لحقائق انسانية عميقة •

واما ان اجدادنا لم يستخدموا اصطلاح الأدب الاسلامى فهذه حقيقة لا تضير الأدب الاسلامى فى شىء وذلك لسببين رئيسين :

الأول : انه من النادر ان نجد اديبا أو ناقدا عربيا قديما تجاوز الأدب العربى الى أدب الشعوب الاسلامية أو حاول ان يتبع جوانب

التأثير والتأثر بينهما ، أو يدرس قضية ما فى هذه الاداب ، على نحو ما تفعله الدراسات المقارنة اليوم ، وعلى نحو ما تقتضيه دراسات المذاهب الأدبية فى عالمنا المعاصر ، وليس هذا تقصيرا فى الأدب أو ادبائه ونقاده القدامى ، بل هو سمة عامة فى آداب العالم قاطبة ، عقلما يتجاوز أديب أو ناقد قبل العصر الحديث أسوار لغته ، وان فعل بقدر ضئيل لا يعطية النظرة الشاملة التى تتميز بها الدراسات فى عصرنا الحديث •

الثانى : ان عدم وجود مصطلح الأدب الاسلامى عند اسلافنا لا يدينهم ولا يديننا فى شىء ••• فثمة مصطلحات كثيرة لم يعرفها أجدادنا ومع ذلك فنحن نستخدمها اليوم فى الأدب والنقد بل وفى الفقه والثقافة الاسلامية العامة•••فالمذاهب الأدبية لم تكن معروفة من قبل، ولا يمنع غيابها عن التراث ان نستخدمها اليوم ، ومصطلحات النقد الكثيرة مثل « الشكل والمضمون ، الضرورة الايقاع الموسيقى الداخلية، التجربة الشعورية التوتر ، التوصيل الاسطورة الأدب الملتزم ••• الخ» لم تكن معروفة عند نقادنا القدامى ولم ترد فى أى كتاب نقدى قديم ، ولا يمنع غيابها عن التراث ان نستخدمها اليوم •

ان من التزيد ان نحتكم الى التراث فى قضية المصطلحات ، ومن التزيد أيضا ان نحاسبه أو نحاسب انفسنا على مناهج وعلوم لم تكن موجودة من قبل ، فندين ماضينا لأنه لم يعرفها أو ندين أنفسنا لأننا نبتدع بدعة لم يعرفها اجدادنا فتاريخ الأدب نفسه مصطلحا ، وعلما — لم يكن موجودا من قبل وتاريخ الأدب العربى لم يكتبه أجدادنا على النحو الذى نكتبه اليوم •

فقد كانت معظم كتاباتهم تراجم الأدباء ، تدرس أهم أحداث حياتهم

أو عرضا لموضوعات أدبيـــة تختلط بالأحـــداث والترجمة وليس من المحرج ان نقول : اننا لا نملك تاريخا آدبيـــا قديمـــا ذا منهج يوافق مناهج التاريخ الأدبى الحديث .

اذا ليست هناك مشكلة فى غيبـــة مصطلح ما ، أو منهج معين أو نقنين أو نظرية على تراثنا ، وليس ضروريا ان نجد عند اسلافنا بذورا لما استحدثناه اليوم من مصـــطلحات ولا يغض من قـــدرهم ظهـــور مصطلحات أو مناهج جديدة كما انه لا يغضن من قدرنا ظهور مصطلحات ومناهج جديدة فى عصور قادمة وعدم اهتمام اسلافنا بوضع مصطلح محدد للأدب الذى يرتبط بالاسلام وقضاياه لا يطعن فى فهمهم للاسلام، لأن الاسلام كان الهواء الطبيعى الذى يتنفسون فيـــه ، ولان الادب الذى يهتم بقضايا الاسلام والمسلمين لم يكن غريبا عنهم ولا يدهشهم ولا يزاحمه أدب آخر يدعو الى عقيدة مخالفة أو يحاول سلخ المجتمع من عقيدته الاسلامية على نحو ما يحدث فى عصره وتجاوزات الشعراء وفحشهم ومبالغاتهم لم تكن من الخطورة التى وصلت اليها اعتداءات بعض الشعراء على العقيدة الاسلامية وقيمها فى العصر الحديث،فضلا عن أننا لا نجد دارسا أو ناقدا واحدا دافع عن التجاوزات والتهور .

ومن تسامح مع الشاعر فى بعض هناته فقد بنى تسامحه على ان الشعراء « يقولون مالا يفعلون » ثم ان المسلمين فى هذا العصر احوج مايكونون الى التمسك بشخصيتهم الاسلامية العالية،وأحوج مايكونون الى تأكيد روابطهم العقدية ويجاوز الخنادق القومية التى حفرت بين بلادهم ، وكادت ان تحفر اخاديد مؤلفة بين قلوبهم ، فلم يكن العربى المسلم يشعر ان التركى المسلم خصمه أو ان الافغانى المسلم غريب عنه ، ولم يكن الأدب أو الفكر أو الثقافة المنتشرة آنئذ لم يكن شىء من هذا يقول له : ان قوميته هى حدود كيانه وان الاسلام دين يعيش فى

زاوية منسية فيه : .. والأدباء الذين أبدعوا آدبهم فى أكثر من لغة واحدة كانوا يشعرون قراءهم — انهم يتجولون فى حدود الشخصية الاسلامية الموحدة...ولم يكونوا فى حاجة الى اقناع أحد بأن آدابهم ترتبط فى سداها ولحمها بالاسلام .

لقد تجاوزت الدراسات النقدية الحديثة مصطلحات وقضايا قديمة كثيرة ، ووضعت مصطلحات وقضايا جديدة كثيرة ، وفقا لاعتبارات لم تكن قائمة من قبل ، وكان الدافع الكبير لذلك حاجة العصر والتطور الكبير الذى حل الأدب فى الامم كلها .

فقد تجاوز الأدب الحدود الجغرافية فى بلاده ، وتجاوز جدران اللغات واكتسب سمة عالمية ينتقل بها من امة الى امة ومن لغة الى لغة — وظهرت المذاهب الأدبية لتنشىء انماطا متجانسة من آداب الشعوب المختلفة وتجمعها فى اطار واحد ، وحققت نتائج مدهشة فى تجاوز الأسوار القومية واللغوية وشكلت وحدات أدبية عالمية .

فالكلاسيكية تنشىء وحدة آدبية عالمية تجمع بين أعمال آدبية فى أمم مختلفة بما فيها من خصائص مشتركة والرومانسية تضم فى اطارها قصائد فردريك شبيجل الألمانى ولامرتين الفرنسى ووردز ورث الانكليزى ، وعندما يدرس أدب هؤلاء يدرس تحت مصطلح الأدب الرومانى .

وعندما جاءت المذاهب الأدبية « العقدية » أوجدت روابط اقوى بين الأعمال الأدبية المتباعدة جغرافيا ولغويا ، فقد زودت الأدباء الذين اعتنقوها بتصورات مشتركة وقدمت لهم قضايا محددة تتفاعل بها وجداناتهم ، وجمعتهم فى خندق واحد مقابل مذاهب واتجاهات أخرى مخالفة لها .

فالواقعية الاشتراكية قامت على الفلسفة المادية الجدلية التى تحاول ان تفسر الحياة تفسيرا خاصا بها وتقدم لاتباعها منهجا خاصا لتنظيمها ، ولما كان الأدباء الواقعيون الاشتراكيون مؤمنين بهذا التفسير ومتمسكين بذلك المنهج ، فقد صدروا فى معالجاتهم المحلية والعالمية عن تصورات مشتركة ، وظهرت أعمالهم الأدبية متجانسة ومتطابقة فى مواقف ورؤى كثيرة الأمر الذى جعل الدارسين والنقاد يخصون أدبهم بمصطلح خاص يضاف اليهم فيقولون أدب الواقعية الاشتراكية .

والوجودية — أيضا — فلسفة أثرت فى عدد الأدباء ، وكان بعض دعاتها أدباء موجودين ، وقد تشابهت تصوراتهم وقضاياهم ورؤيتهم الحياة فظهرت قصص ومسرحيات عدة فى بلاد مختلفة كونت مادة الأدب الوجودى وصار هذا التعبير مصطلحا له دلالة واضحة يستخدمه الدارسون والنقاد فى أمم كثيرة .

ولو تأملنا فى حقيقة الوجودية والواقعية الاشتراكية فسوف نجدها مجموعة قيم تفسر الحياة من وجهة نظر خاصة ، وتطرح منهجا ينظم وجود الفرد ونشاطه فيها بشكل عام ، وهذا العمل هو مهمة العقائد السماوية وبذلك تكون « الايديولجيات » عند أصحابها بدائل فكرية للعقيدة ، بل انها قد تحولت عند المؤمنين بها الى عقيدة تحل محل العقيدة السماوية الغائبة .

وقد أقامت هذه الأبنية العقدية الجديدة أدبا له خصائص موضوعية وفنية متميزة يبدعه أدباء ينتمون الى قوميات ولغات متباينة . فعلت ذلك عندما قدمت لهؤلاء الأدباء قدرا معينا من التصورات والمواقف والقضايا الموحدة .

ولاشك ان الاسلام يمنح المسلمين قدرا أكبر واغنى من التصورات والقضايا والمواقف الموحدة بل انه ينشىء وحدة الفكر والسلوك ووحدة المنهج لا يمكن أن يقارن بها أى منهج أو فلسفة أخرى .

والنتيجة المنطقية لذلك ، ان الاسلام يمنح الأدباء الملتزمين به فكرا وسلوكا قدرا كبيرا من التصورات الموحدة وقدرا واقعيا من القضايا والمواقف المتشابهة ، من ثم فهو أقدر على بناء أدب متجانس السمات يبدعه أدباء اسلاميون فى بلاد شتى وينسب اليه ، فيقال « أدب اسلامى » على نحو ما قيل أدب وجودى وأدب اشتراكى .

فى الحقيقة لم تعد القضية فى حاجة الى جهد كبير لاثباتها ، فالايديولوجيات التى ظهرت فى الغرب — وما زالت تظهر بين حين وآخر صنعت اطارا أدبيا — خاصا بها وانشأت مصطلحات الأدب دون عوائق تذكر ، وقد تقبل النقد اطرها واجاز مصطلحاتها ودرسها دراسة وافية .

واذا سلمنا بان هذه « الايديولوجيات » بدائل عقدية ، فينبغى ان نسلم بأن العقائد الأصلية جديرة بان تكون لها اطار أدبى خاص ، ومصطلح يضاف اليها .

وان كان التاريخ الأدبى لم يعرف مصطلح « الأدب النصرانى » مثلا فانه قد عرف مصطلحات مرادفة لها مثل الأدب الميتافيزيكى ، والشعر الدينى ، والمسرح الدينى ، والمكتبة النقدية الغربية مليئة بابحاث عن هذه الآداب فى الاتجاهات ، تستخدم مصطلحاتها بحرية واسعة .

وقد تكون نسبة الأدب الى الدين جديدة على نقدنا ، وقد تثير الدهشة عند من لم يألفوها بعد ، ولكن اصطلاح الأدب الاسلامى بالمدلول الذى يرتضيه دارسوه ودعاته لن يكون غريبا اذا تداولناه ،

وسوف يتبدد الاحساس بالدهشة امامه عندما يكون له مضمون حقيقى يرتبط به ، وعندما تكون له — أيضا — دراسات مقدمة تقدم نتائج مهمة وتبرز العلاقة القوية بين الأعمال الأدبية التى يحويها والاسلام .

واذا كانت مثل هذه الدراسات قليلة من قبل ، فانها تكثر يوما بعد يوم ، وفى مكتبتنا المعاصرة دراسات رائدة ترهص بقيام مكتبة كاملة تجمع شمل الأدب الاسلامى ودراساته ، ولتذكر جيدا أننا قبل أقل من مئة سنة لم نجد فى العالم من يتحدث عن الواقعية الاشتراكية أو الوجودية ولا عن آدابهما .

ولكن بعد أن ظهرت فلسفاتهما وظهر أدبهما أصبح المصطلح الذى يدل عليهما متداولا وشائعا فى كتابات الدارسين والنقاد .

ان نسبة الأدب الى الدين أو العقيدة — سماوية أو بشرية أمر غير محرج ، وقد أصبحت هذه النسبة حقيقية ثابتة فى عصرنا الحاضر ، وانتشرت فى جميع الآداب العالمية — بما فيها الأدب العربى ، وغدت مصطلحاتها مسامة من مسلمات الساحة الأدبية المعاصرة .

ان الافتراض الذى يجعل « الأدب الاسلامى » يوجه الأدب العربى الى آفاق مذهبية فى غير محله لسببين :

الأول : ان الأدب العربي قد توجه حقيقة — ومنذ عدة عقود — فى هذا القرن الى الآفاق المذهبية . ولم يعد ينتظر ان يدفعه الأدب الاسلامى أو الأدباء الاسلاميون الى هذا الميدان .

والثانى : ان الأدب الاسلامى ذاته يهدف الى موقف تشرذم الأدب العربى وراء القصائد الصغيرة والدخيلة والمتحرفة ، ويهدف الى تأكيد الرابطة التاريخية والاصيلة من الأدب والعقيدة .

ومن ينظر الى واقع الأدب فى معظم البلاد الاسلامية — فسوف يحزنه ان الأدب قد توزع وراء العقائد المتحرفة واستقطبته المذاهب الفكرية والفلسفية الى حد كبير وسيجد أثر هذه العقاد والمذاهب واضحا وخطيرا •

فمنذ ان بدأ الأدب الغربى يؤثر فى آدبنا ظهرت آثار دينية على أجزاء مختلفة منه وظهرت أيضا مظاهر التأثير بالفلسفة الغربية والشرقية المختلفة •

واما « المذاهب » الغربية والشرقية ، فمن المؤلم ان نقول:.

ان لهذه المذاهب منابر كثيرة فى آدبنا العربى الحديث • وان عددا من آدبائنا قد تحولوا الى دعاة مخلصين لها ، واستطاعوا ان يكونوا جيوبا غير صغيرة على سطحه فالماركسية التى اتخذت الواقعية الاشتراكية مذهبها الأدبى وجعلته قناعا تستتر وراءه لها أدباء يصدرون عن تصوراتها ويدعون اليها بأعمالهم الأدبية فى معظم البلاد العربية ، وانتاجهم غزير احتضنته بعض الأنظمة العربية فى فترات مختلفة ، وسخرت له وسائل الاعلام ، واقامت له دور نشر تروجه لكل ما عليه من زيف وغثاثة • ورعت أدباءه الناشئين حتى استوت أقلامهم وأصبح بعضهم مشهورين على الصعيدين الداخلى والخارجى •

والوجودية فلسفة ذات جمهور ضيق وجدت فى أدبنا وادبائنا من يجعل تصوراتها ويكتب القصص والقصائد والمقالات العقدية التى تروج مفهوماتها وقضاياها •

أذن لن تكون جريرة الأدب الاسلامى انه اقام منبرا عقديا فى الأدب العربى • فهناك منابر عدة لعقائد منحرفة من قبل • وقد تأخر

الاسـلاميون فى اقـامة منبرهم • وما زال الشـعراء والقصـاصون والمسرحيون الذين يكتبون وفق التصورات الاسلامية فى البلاد العربية عامة أقل بكثير من الأدباء الذين يكتبون وفق تصـورات منحـرفة أو ملحدة • والخطر داهم ان لم نعد له العدة فلا يدرى الا الله ماذا ستكون النتيجـة •

الأستاذ الدكتور صالح ربيعى عزب
الأستاذ المساعد بكلية البنات الاسلامية والعربية
جامعة الأزهر بسوهاج